الفصل الثامن

السباق بين الأصولية والحداثة
شبح الأصولية الإسلامية

obeikandl.com

السباق بين الأصولية والحداثة

تكاد هاتان الثنائيتان المتناقضتان فكرًا وأسلوبًا، والمتلازمتان في طرح إشكالياتهما كحل جذري في معتركهما المعاصر، الذي غدا متخثرًا في قعر العقول الحاملة له، إن لم يتم تدويرهما تدويرًا منطقيًا عقلانيًا مبنيًا على حقائق تاريخية وفلسفية، بعيدًا عن زجهما في صراعات جانبية، أثبتت عقمها المتكرر في لي ذراعهما المخيفتين الطويلتين اللتين تطرحان نفسيهما بوسائل قائمة على القوة أحيانًا، وعلى الاستعطاف المشحون بالجذب نحوهما أحيانًا أخرى.

فلا الحداثة استطاعت أن تلقي بظلالها الكثيفة لطمر ظاهرة الأصولية المتفاقمة، ولا الأصولية استطاعت بدورها، التصدي لتلك الظاهرة والإفلات من دعواتها المنتشرة كانتشار النار في الهشيم، فالتتابع الزمني بينهما، يبدأ من نقطة حملت الأصولية ضمن تجويفات دينية محضة، وأفرزت الحداثة في نقطة أخرى، ضمن تحديات هرمية تساير روح العصر وتواكب تطلعاته وتصوراته المستقبلية.

وكثيرًا ما يشاع أنّ ظاهرة الأصولية مرتبطة ببذور الدين الأولى، وأنّ التشدد في الدين هو الذي أنتجها، ففي كلا الرأيين شيء من الصحة، لكن أن يقال إنّ الإسلام كديانة سماوية، هو أول من احتضنها ورعاها منذ أكثر من سبعة قرون، فثمة رؤية معاكسة لهذا القول، لأن الأصولية، وإن ظهرت عند فئة من الإسلاميين، فهي مختلفة عن غيرها من الأصوليات الأخرى،

كونها مستندة إلى تراكمات تاريخية وطائفية متجذرة في عقول أصحابها، وما يحصل يوميًا في العراق من عمليات تفجير واغتيال منظم يدلل على ذلك.

كما ينبغي التأكيد على أن النزعة الأصولية بدأت في الغرب أولاً في القرن الثالث عشر، لعدم امتلاك الأصوليين الغربيين آنذاك، متسعًا من الديمقراطية والتسامح والرغبة في فصل الكنيسة عن الدولة، إضافة إلى رفضهم لمنطق الاكتشافات العلمية الحديثة المرتبطة بأصل الحياة، لا بل إنهم اعتقدوا، أنّ الأفراد أصبحوا أقل عقلانية في احتياجهم للدين، ما دفعهم إلى مواجهة النزعات العلمانية الحداثوية، بإدخالهم الدين إلى مسرح الأحداث.

وعليه، فإن الأصوليين الغربيين أرادوا في حركتهم هذه، التأكيد على أصول التراث المسيحي وبذوره الأولى، من خلال تفسيرهم (الأرثوذكسي) الحرفي للكتاب المقدس، واعتناقهم لمعتقدات أساسية محددة في منظورهم، وبالتالي خروجهم بانطباعات أصولية محافظة، مرتبطة ارتباطًا لا ينفصم عن تراث الماضي، فجميع الأصوليات، تتبع منهجًا موحدًا في إدراكها للأخطار التي تحيق بها، مرتكزة على شحن روحي معاد للعلمنة وملحقاتها عداءً كونيًا.

لذا، فهم يحاولون إعادة القداسة إلى عالم متزايد الريبة، وتشذيب أصولهم ضمن إيديولوجيات براغماتية تخاصم الحداثة عمليًا، التي طورت نمطًا حضاريًا علميًا، امتدت جذوره إلى شتى بقاع العالم، وعلى أثرها، امتد نمط أصولي موازي ذو طبيعة تكاملية في الصراع معها، بمعنى أنّه يستطيع الإفلات من الحداثة، لكنه لا يستطيع إنكار علمانيتها.

وقد يغدو السباق بين الحداثة والأصولية أكثر احتدامًا، في ظل الفوران الفكري، الذي يغزو العقول والقلوب معًا.

فالسباق الحاصل، يضع الحداثة واستحقاقاتها الحضارية، في بؤرة صراع مع الأصولية الرافضة لمنهجية التنوير والاختلاف مع الآخر، وتدعي أنها تنأى بنفسها عن استخدام أدوات الحداثة ووسائلها المنتشرة كونيًا، فالواقع يشير بعكس ذلك، لأنّ الأصوليين أنفسهم، يستخدمون أدوات الحداثة وابتكاراتها في حروبهم الدامية، وفي الوقت ذاته، يرفعون شعاراتهم المعادية للحداثة، التي تصف ذاتها الحضارية على هيئة نقطة مركزية، يدور العالم حولها ولا تخفي نزعتها التقسيمية للعالم إلى جزئين: الأول غربي حداثوي، والثاني شرقي أصولي، ما يعيد الأذهان إلى فكرة الصدام بين الحضارات، مستبعدة حوارها.

إن اختزال الإسلام بفكر القاعدة وغيره من التنظيمات، يعزز تلك النزعة التقسيمية، ويغذيها بالمبررات التي تحتاجها، وهنا تتحول الحداثة من نظرتها التقدمية إلى التراجعية، التي تغذيها القيم الميثولوجية التقليدية، حيث تنظر إلى الإسلام كونه دينًا يحكم دولته وفقًا لقوانين الشريعة ونصوصها المقدسة، التي تضع العصي في عجلات التقدم لأي مجتمع سليم، فالانطباع السائد عن صورة المجتمعات الإسلامية في الغرب، أنها لو سارت في ركب الحداثة، فلن تطبق تغييرًا راديكاليًا في ثقافتها المحافظة، كما لن تشارك الغرب حداثته، التي أصبحت من سمات الثقافة المجددة، إذا لم يجر في داخلها مخاضات تنقلها تدريجيًا من الروح المحافظة إلى روح الحداثة. وقد يسري الاعتقاد هنا، بأن الأصولية هي رد فعل طبيعي على هذا الانتقال المتدرج، فقضية التجديد في الإسلام تختلف عما هي عليه في باقي الأديان، لانتهاجه نهجًا اتباعيًا وليس

إبداعيًا تجديديًا، دون أن يعني ذلك الانطواء على الذات وعدم الانفتاح على الآخر وتقبله، فإذا كانت الأصولية داء مستفحل في زمانه ومكانه، فلابد من علاجها علاجًا وسطيًا عقليًا، ومن ثم علاجًا تنويريًا شاملاً، وفي كلا العلاجين، علاج واحد، يتمثل في بناء ثقافة حوارية واسعة، تدحض التشدد المغذي لأشكال التطرف المختلفة.

obeikandl.com

شبح الأصولية الإسلامية

ليست الأصولية، بما تعني التشدد في الدين والعودة إلى التراث من اختصاص ديانة بعينها، إلا أن أشباحها باتت تحوم في سماء الشرق، أكثر مما هو عليه الحال في سماء الغرب، فلم تعد الأصولية المسيحية، تفعل فعلها الرجعي بالمجتمعات الغربية، قدر ما أصبحت الأصولية الإسلامية، تفرض أجندتها على واقع الحياة السياسية والاجتماعية لكل أرجاء الشرق.

وإذا ما وجدت الأصولية المسيحية في الغرب، فإن مجالها الأخير لا يتعدى حدود اللعب في الحياة السياسية، أي تأثيرها غير المباشر على صناعة القرار السياسي والاستراتيجي لقادة الدول الغربية، لكون تأثيرها الاجتماعي، انتفى وجوده بشكل شبه نهائي، بعدما أقفلت الكنيسة أبوابها أمام المؤمنين، وألغيت الامتيازات الواسعة لرجال الدين، كل ذلك جرى كنتيجة مباشرة لحركة الإصلاح الديني، التي أعادت رسم حدود المسيحية على خريطة جديدة، حددت بمقتضاها دور الكنيسة ورجالها، والتي ترافقت أيضًا مع انبلاج فجر الثورة على القطاعين السياسي والديني في فرنسا وعموم الغرب.

فهل من الممكن أن نفسر الصراع بشقيه السياسي والثقافي بين الشرق والغرب، وفقًا لرغبات الأصوليين المشبعة بروح التطرف والتشدد والتعصب في فهم الدين وممارسته؟.

في الواقع، قد لا يكون للأصولية، إذا ما تحدثنا عن الأصولية الإسلامية، لكونها أقوى الأصوليات الموجودة على ساحة الصراع

وأشدها تأثيرًا، قد لا يكون لها الكلمة الأخيرة في إشعال فتيل الصراع والصدام بين نصفي الكرة الأرضية، وبين مجموعة القيم والمبادئ المتمثلة داخل كل حضارة إنسانية بعينها، لأن الكلمة في هكذا صراع، من نصيب القادة السياسيين، فعندما أمر الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش بالحرب على أفغانستان، ردًا على هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، أمر بصفته السياسية كرئيس لبلد اعتدي عليه، لا بصفته رئيسًا أصوليًا، كما لم يأمر حينها بالنيابة عن أحد القساوسة الأميركيين، ولم يفوضه بقرار الحرب تلك، أحد أولئك القساوسة.

أما عوامل ذلك الصراع ومقوماته، هي ما يجيبنا عن السؤال السابق، لأنها موجودة لدى الأصوليين عامة، والمسلمين منهم خاصة، وأبرزها على الإطلاق، رفض القيم الغربية بحجة انطوائها على مخاطر أخلاقية، كمقدمة أولى لرفض مجمل السياسات الغربية في مرحلة لاحقة.

إن رفض القيم الغربية بذريعة أنها تدعو إلى الانحلال الخلقي والروحي، هو الأساس الذي أدى إلى تصليب عود الأصولية الإسلامية وتقوية نزعتها الصدامية مع محيطها الداخلي والخارجي على حد سواء.

والسؤال الآن، مَن هو المسئول عن رفض تلك القيم رفضًا مطلقًا؟ ولطالما أن الإجابة عن هذا السؤال، تشترط منا الإجابة عن سؤال مماثل للسؤال السابق، مَن هو المسئول عن تقوية الأصولية وتصليب عودها؟.

يمكن تلخيص الإجابة عن السؤالين السابقين، بجواب واحد، هو عامل الإحباط، فالإحباط النفسي والسياسي والاجتماعي الذي تعيشه شعوب الشرق الإسلامي، هو النواة الأولى لتكوين شبح

الأصولية، لأنه لم يكن خطر الأصولية الإسلامية موجودًا في أي وقت، كما هو موجود الآن، وخطورتها أنها تتوهم في صدامها مع الآخر، أنه يملك نفس نزعتها الأصولية وإن بوجه آخر، بمعنى أنه عندما تصطدم بالغرب، فإنها تبرر صدامها معه، كونه لا يقل أصولية مسيحية عنها.

إلا أن الواقع يقول، إن مقومات الأصولية المسيحية تختلف في ظروف نشأتها وتكوينها، أشد الاختلاف عن الأصولية الإسلامية، فلم تنشأ الأصولية المسيحية من باطن الإحباط، كما لدى الإسلامية.

إن الأصولية المسيحية ظهرت كردة فعل على إقفال الكنيسة وطي صفحة الكتاب المقدس، فهي نشأت في ظروف ملؤها التسلط، الذي ساهمت فيه الكنيسة وطبقة ملاك الأراضي إلى حد كبير، ونستطيع القول، إن ظهورها العملي سابق على ظهور الأصولية الإسلامية حديثة الولادة، وذلك بحكم الفارق الزمني بينهما، وتطورات الأوضاع بين الشرق والغرب.

إلا أن الأصوليتين الإسلامية والمسيحية، تلتقيان حول نقطة التقسيم، فكما تنقسم الأصولية المسيحية، وفقًا للتقسيم المذهبي الذي يطبع المسيحية بعدة مذاهب، كذلك الحال بالنسبة للأصولية الإسلامية، التي تنقسم بدورها بين مذهبين رئيسيين، هما الشيعة والسنة.

فبالنسبة لهذين المذهبين، تظهر الأصولية، تبعًا لعدة عوامل، منها ما يرتبط أشد الارتباط بالبيئة التي يتربى فيها المسلم، سواء كانت هذه البيئة ماضوية لا تخرج عن حفرة ماضيها الأليم، الذي تحاول أن تعيده بفرض الثأر التاريخي المزعوم، وبأي ثمن، كما هو الحال لدى معظم الشيعة في العراق وإيران، أو كانت هذه البيئة محافظة تدعي الطهر والنقاء والخلاص، الذي يبرر انغلاقها على

ذاتها، ومثالها "السلفية" في الجزيرة العربية، وانكبابها المبالغ في ممارساتها الطقوسية، ومثالها "الصوفية" في مصر.

وإذا ما نظرنا إلى الصدام الذي تمثله إيران الخمينية – نسبة إلى مرشد ثورتها الإسلامية علي الخميني – بهويتها الشيعية مع الغرب، سنجد أنه ذات الصدام الذي تمثله "القاعدة" بهويتها السنية، لكون خصمهما واحد، ولأنهما تتحدران من أصولية إسلامية واحدة، وإن اختلفت أدوات الصدام، بين اللجوء إلى استخدام منهج القوة الخشنة "القاعدة" أو استخدام القوة الناعمة "إيران الخمينية"، والقاسم المشترك بينهما، التفسير التلفيقي لا الحرفي لنصوص القرآن، بما يبرر ركوبهما موجة الأصولية، لاعتقادهما الدائم بأنهما يواجهان خصمًا أصوليًا واحدًا.

إن التفسير التلفيقي لنصوص القرآن، يبيح للفرد المسلم، أن يختار من النصوص ما يشاء، وأن يزاوج بينها وبين نصوص قرآنية أخرى، نزلت ونسخت في ظروف زمنية بعيدة كل البعد في معناها ومبناها الدلالي عن ظروف عصرنا الراهن، وكذلك عن ظروف النصوص الأخرى.

أخيرًا، إذا ما كان التفسير الحرفي "الأرثوذكسي" لنصوص الكتاب المقدس، هو العمود الفقري للأصولية المسيحية، فإن التفسير التلفيقي لنصوص القرآن هو حجر الزاوية للأصولية الإسلامية.